ملاحظات أولية حول الإعلام واللغة*

بقلم: د. عبدالله به شيو
الترجمة عن الكردية: أردلان حسن ـ محسن سيدا

منذ وقت طويل ومسألة الشخصية واللغة الكردية تستأثر باهتمامي. حيث أن متابعة دقيقة ومتأنية للصحف والمجلات والإذاعات والأقنية التلفزيونية تثير العديد من الأفكار والتساؤلات، لكن من أجل كتابة تشبع الموضوع بحثاً وتتضمن على الأقل الإجابة عن بعض الأسئلة الملحة يحتاج المرء إلى مجموعة مصادر موثوقة وسنوات من البحث. أضف إلى ذلك أن هذه المسألة لها علاقة مباشرة بالسياسة فمن الواضح أن إعلام مؤسسة تطالب بالاستقلال تختلف نظرته إلى الثقافة واللغة القوميتين عن نظرة إعلام كوسموبوليتي.

وإن الكتابة الأكاديمية أو العلمية تسعى جاهدة للابتعاد عن التعميم وتنحو منحى التصنيف والتخصيص، فكل مسألة نتناولها تضعنا أمام العشرات من التساؤلات: أية لغة كردية نموذجية(ستاندارد)؟ وأي إعلام؟ إعلام أية مرحلة؟ وفي ظل أية ظروف تاريخية؟ الإعلام الخاص أم الإعلام الحزبي؟ وما هي الخلفية الأيديولوجية للحزب بشكل عام ولقائده بشكل خاص؟

في أيّ جزء من كردستان وبأية لهجة تنشر؟ أية مجلة وأية صحيفة؟ وأي عدد وأية قناة؟ وهل المقصود بالإعلام الكردي هو فقط ما ينشر باللغة الكردية ومن قبل الأكراد؟.

هذه الأسئلة وعشرات غيرها..وكل سؤال يتشعب إلى العديد والتفرعات...لذا ومن الآن أقول:أني لا أرمي في هذا المقال إلى الإجابة عن هذه التساؤلات. وكل ما ابتغيه هنا هو أن أفتح مجدداً ملفاً مهماً. ألا وهو ملف مسألة اللغة،وألفت عناية المثقفين إلى الدور الهام للإعلام،هذا الدور الذي أخذ يتعاظم في السنوات الأخيرة. إننا نعيش اليوم في عالم يتسم بالتنوع الثقافي. ثمة ثقافات خجولة (تتنحنح) وتطرق بابك قبل الدخول عليك، وثمة ثقافات أخرى تقتحم باب بيتك اقتحاماً. وأمام هذا الوضع لا نملك إلا أن نفتح نافذة للاستنارة وتغيير الهواء، علينا أن نرحب

الحوار على الانترنيت: www.amude.com/alhiwar

بهؤلاء الذين يأتون من أجل التفاعل والتبادل الثقافي، وعلينا أن نتعلم كيف نوصد بابنا في وجه أولئك الذين يريدون إلجامنا في ديارنا المهدومة وطمس معالم وطننا وأخلاقنا.

إن المرحلة التاريخية الراهنة التي نعيشها مع محتلي وطننا ليست بشكل من الأشكال أكثر تطوراً من مرحلة الإقطاع الأوربي في القرون الوسطى. فنحن لم نشهد عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها أوربة منذ مئات السنين ودون أن يكون لنا إسهام فعلي في هذه العملية،أخذنا نستهلك قشور نتاجها التاريخي والقينا جانباً لب هذا النتاج. أننا نقبل التلفزيون والكمبيوتر والهاتف والانترنيت لكننا نرفض العقل الذي أبدع هذه الأدوات. وباستطاعتنا كتابة طن من الكتب عن الديمقراطية، لكننا لا نستطيع أن نكون ديمقراطيين على الطريقة الأوربية، إلا إذا تم ذلك نتيجة عملية مخاض اجتماعي طويل الأمد، وإلا مهما نادينا بالسلام والديمقراطية فإن علاقة العرب والترك والفرس بالأكراد لن تصبح كعلاقة الألمان والفرنسيين والإيطاليين ببعضهم في سويسرا. أود أن أقول: على الرغم من الأوربيين سبقونا في التطور بمئات السنين وتجاوزوا ظاهرياً مرحلة القومية أو هم في طور تجاوزها، فإننا نرى الشعوب الأوربية تسعى جاهدة في ظل التقدم التكنولوجي والإعلامي إلى حماية ملامحها ولغتها وثقافتها وعاداتها وتقاليدها.

لقد حاولت حتى الآن وفي مناسبات عديدة التحدث بالروسية مع كتاب من أستونيا وغيرهم من دول البلطيق، لكنهم كانوا يتهربون من التحدث باللغة الروسية علماً أنه ليس بينهم من لا يعرف الروسية لأنهم عاشوا في الاتحاد السوفيتي السابق.

يشكل السويديون نسبة6% من سكان فنلندا،وفي جزيرة اولاند يبلغ تعدادهم 25 ألف نسمة فقط، ومع هذا فهم يتمتعون بالحكم الذاتي، وينبغي أن نعرف أن الحكم الذاتي لديهم ليس(الحكم الذاتي الحقيقي) لدينا، إلى ذلك فإن لهم علمهم الخاص ولهم برلمانهم ودستورهم المحلي، بل إن لهم أيضاً علاقات تجارية خارجية، وعدا عن ذلك فهم لا يؤدون الخدمة الإلزامية لفنلندا. ولا يسمحون للفنلنديين بشراء الأراضي وإعمار الدور السكنية في جزيرتهم،كما أن لغتهم تعتبر رسمية ليس في جزيرتهم فحسب وإنما في عموم فنلندا. غير أنه من المستحيل أن تسمع سويدياً واحداً يتكلم مع أبناء جلدته بلغة أخرى- أو لا قدر الله - يتكلم مع أطفاله باللغة الفنلندية، أو يرسل أبناءه إلى مدرسة فنلندية.

وإذا كان الأستونيون والسويديون يخشون ضياع لغتهم وثقافتهم وهم أصحاب دول وعشرات المؤسسات الثقافية فماذا عسانا نفعل نحن الذين

نتعرض من كل الجهات لحملات المحتلين الأكثر تخلفاً في عصرنا هذا؟ إنهم لا يكتفون بطمس معالم أرضنا وتراثنا، ويغيرون اسم وطننا ويمنعون لغتنا وينكرون وجودنا أيضاً. أن عملية صهر الأكراد تتابع منذ أمد بعيد لكنها على أشدها الآن، وقد شكلت أممية الأكراد غير المبررة في النصف الثاني من القرن الماضي الأساس الفكري والنفسي لهذه العملية. في السنوات الأخيرة وإثر الفشل العسكري والسياسي للتنظيمات الكردية أصبحت دعوات المطالبة بالأخوة والديمقراطية دون قيد أو شرط من طرف واحد من جهة والدعوة إلى الأممية الإسلامية من جهة أخرى تشكل أساساً جديداً لعملية الصهر هذه.

فإن لم يسعفنا وعينا القومي ولم نصر على التمسك بشخصيتنا ولغتنا وثقافتنا فإني أقولها بكامل الوعي: ما عجز عن تحطيمه(صانعو مدافع الزمان) تحطمه العولمة، والتكنولوجيا العالمية الحديثة تعجل عملية الصهر هذه. وأن هياج وصراخ أناس غرباء محتشدين في الشوارع من أجل هويتهم وتاريخهم وأرضهم، كل ذلك لا يغير في الأمر شيئاً. وأن حالة التشرذم والذل واليأس التي نعيشها هي بعض علامات مصيرنا الأسود.

فاللغة هي آخر معاقل الدفاع في نضال الشعوب المستعبدة وأن احتلال هذا المعقل لا يعني سوى هزيمة الأمة وتدحارها.فليس شرطاً أن يكون صهر الأمم بالقمع ومنع اللغة واستخدام العنف والإرهاب، بل إن الصهر في ظل التكنولوجيا الإعلامية وغياب الوعي القومي يصبح نتيجة موضوعية لاستمرارية العلاقة بين المستعبد والمستعبد أي لا علاقة للعملية بكون مستعبدينا رحماء أو ظلاماً، أصحاب ضمير أم لا.لسنا كالفيتناميين الذين كانوا يرون فقط مدافع وجنود المحتل وطائراته في حين أن شعبه(أي شعب المحتل) كان على بعد آلاف الكيلومترات منه. وليس هناك حواجز أو موانع تفصل بيننا وبين محتلينا،إذ يجمعنا بهم الدين ولون البشرة والعادات والتقاليد المتقاربة والتاريخ المتداخل أو كما قال بلنت أجويت: (متداخلين كاللحم والعظم) لا أفهم شيئاً من علم الوراثة والكيمياء، لكن أعلم أن الأكثرية القوية مثلاً ساندة دوماً والأقلية الضعيفة منتحية، وأعلم كذلك أنه إذا مزجنا كمية كبيرة من لون قاتم مع كمية صغيرة من لون فاتح، فإن الأول يغلب على الثاني. إن عملية الصهر هي عملية بطيئة وخفية وطويلة الأمد لا نتلمس نتائجها خلال سنة أو سنتين،

فقد انقرضت عشرات الشعوب عبر التاريخ القديم، وفي التاريخ الحديث هناك عشرات الشعوب التي تحتضر وهناك شعوب (كالهنود الحمر في أمريكا والساميين في اسكندنافيا) يحافظ عليها كتحف نادرة. لقد كان الاتحاد السوفيتي السابق بوتقة نموذجية للصهر البطيء للأقليات القومية.

ففي بداية الثمانينات كان عدد سكان كازاخستان يبلغ 15350000نسمة(1)، وكان عدد الكازاخيين 5300000 نسمة(2) فقط، في هذه الحال استطاع الأخوة الكبار الروس خلال فترة حكمهم الاتحادي الذي دام ستين عاماً أن يشكلوا نصف عدد سكان كازاخستان.وكان عدد سكان لاتفيا في عام 1940م يقارب مليوني نسمة(3)، أما في عام 1981م(بعد مضي 37 عاماً على احتلالها) بلغ عدد سكان هذه الجمهورية 2000539نسمة وكان عدد اللاتفيين منهم 1000344نسمة(4) فقط مما يعني أنه خلال 40 عاماً لم يتوقف الأمر عند حد عدم ازدياد عدد سكان لاتفيا فحسب بل كان اللاتفيون على وشك أن يصبحوا أقلية في جمهوريتهم، ولولا ظهور بروسترويكا غورباتشوف لما بقي لهم أثر حتى وإن كان لهم مائة جمهورية.

ولم تكن الجمهوريات الاتحادية الأخرى أفضل حالاً من كازاخستان ولاتفيا.

ففي مدينة باكو عاصمة أذربيجان كان الآذريون أقلية، وفي بلاروسيا وأوكرانيا، باستثناء القرى النائية لم يكن أحد يتحدث بلغته ما دام هناك روسي واحد. لقد انصهرت عشرات الشعوب الصغيرة التي منحت حكماً ذاتياً اسمياً، وهناك شعوب أخرى تحتضر.

في عام 1930م حصل شعبا سيبيريا الأصليان(هانتي ومانسي)على الحكم الذاتي، وفي إحصاء 1969م أي بعد مضي حوالي40عاماً بلغ عدد سكانهما 3% من إجمالي عدد السكان في منطقة الحكم الذاتي.(5)

فإذا كانت هذه هي حال شعوب(دولة العمال والفلاحين)، فكيف ستكون حال الشعب الكردي المضطهد والممزق، ومحتلوه أكثر تخلفاً من ستالين وبيريه وجدانوفيتش؟ لم تبق وسيلة من وسائل الصهر القومي لم تمارس ضدهم، كالإبادة الجماعية وهدم القرى والاحتلال العسكري المباشر والتهجير وعدم الإقرار بهويتهم القومية إلخ، غير أن أكثر الوسائل تأثيراً، التي اجمع محتلو بلادنا على التشبث بها، هي مصادرة اللغة الكردية، فالبعض منهم ينكر وجودها صراحة(تركية وسورية) والبعض يعتبرها غير صالحة للعلم والكتابة والإعلام(إيران) والبعض الأخر يعترف بها لغة مستقلة، ولكنه يقيد حركتها ويضع العراقيل أمام تطورها ويحول دون تحولها إلى لغة نموذجية معترف بها رسمياً (العراق).(6)

أن اللغة كائن حي، وهي كجدول ماء إذا لم تتم إزالة العراقيل أمام جريانه ولم يتغذ بمياه جديدة فإنه يتحول بمرور الأيام إلى مستنقع آسن. فلغة لا تدرس في المدارس ولا تتنفس في أجهزة الإعلام القومية ولا يكتب بها في الدوائر والمؤسسات الرسمية فأي مستقبل يرتجى لها؟ واللغة الكردية محاصرة بلغات مسيطرة تشدد الخناق عليها يوماً بعد يوم. في بعض مناطق جنوب كردستان الوضع أفضل نسبياً،ولكن لو أمعنا النظر فيه لادركنا إلى أي مدى شوهت سياسة التعريب الشخصية الثقافية الكردية، فبعد انتهاء حرب الخليج وقيام انتفاضة جماهير كردستان وإزالة مؤسسات البعث، كان من المفروض أن تقوم السلطات بتكريد الحياة الثقافية ومحو ثقافة المحتل المفروضة، وكان من المفروض وبأسرع وقت ممكن أن نجعل الطفل الكردي يتجه إلى المدرسة صباحاً وهو يتأبط كتبه المؤلفة بلغته الأم، ليدرس آداب وجغرافية وتاريخ وطنه. وكان من المفروض أيضاً تكريد الصحف والمجلات والإذاعات والأقنية التلفزيونية والمراسلات بين الدوائر الرسمية وغيرها. وكان من المفروض وبأسرع وقت ممكن أن يتم تأسيس الأكاديمية العلمية وتوفير جميع الإمكانيات اللازمة لوضع معجم معتمد وموسوعة كردستانية. وبما أن هذا لم يتم، أو أن ما تم لم يكن بالمستوى المطلوب، يكفي القول أن المادة الوحيدة التي لم تدرج ضمن امتحان الثانوية العامة حتى السنة الفائتة هي مادة اللغة الكردية. وحتى الآن فإن قسماً لا يستهان به من برامج الإذاعة والتلفزيون وخاصة المواد الترفيهية منها تبث باللغات العربية والتركية والفارسية(هذا إن لم تكن اللغة الهندية قد أضيفت إليها) فبعد تسع سنوات من الحياة بعيداً عن سلطة البعث، لا تزال اللغة العربية تحافظ على مكانتها كلغة رسمية أولى. والناس عامة والمثقفون خاصة غارقون حتى النخاع في اللغة العربية ويفكرون بالعربية، والموسيقى العربية والفارسية والتركية تصدح ليل نهارفي كل البيوت والأندية والملاهي والمقاهي وسيارات(التاكسي).